

الفصل الحادي عشر

متى بلغت هذا البيت؟ وكيف بلغت؟ وأي طريق سلكت إليه؟ وكم من يوم أو كم من أسبوع لبثت فيه؟ وكم من يوم أو من أسبوع احتملت أثقال هذا المرض الذي أخذت غمراته تنجلي عني لحظات في كل يوم ثم لا تلبث أن تتابع وتتراكم ويركب بعضها بعضاً وتأخذني من كل وجه فأجهل نفسي وأجهل مَنْ حولي: كل شيء وكل إنسان، ولا أحس ولا أرى حين أغرق فيها وحين أخرج منها إلا هذه الصورة المنكرة البشعة التي لا أذكرها قط إلا جرت في جسمي رعدة عنيفة مؤلمة وأخذ نفسي اضطراب لا حد له؟

أسئلة ألقيتها على نفسي ألف مرة ومرة، وسألقيها على نفسي ألف مرة ومرة، فلم أظفر ولن أظفر لها بجواب، وإنما أذكر صوتك أيها الطائر العزيز وهو ينحف في أذني، ويفنى قليلاً قليلاً كأنه صوت المودع يبلغ المسافر والقطار يبعد به عنه شيئاً فشيئاً، إنما أذكر ذلك الصوت البشع المجرم صوت خالنا الآثم وهو يتهدج ويبعد عني شيئاً فشيئاً في ثقل وبغض واشمئزاز.

إنما أرى قطعة من الليل تسعى إليّ سعيًا هادئًا أول الأمر ولكنها تسرع شيئاً فشيئاً، وهذه الظلمات تتكاثر من حولي كأنها الأمواج العظام، وهذه الأصوات تنقطع وتبعد، وهأنذا هذه يغمرنني الموج وأدخل في الليل فلا أحس شيئاً ولا أرى شيئاً ولا أشعر بشيء، يا له من نوم عميق طويل! إن الأحلام قد ألحّت عليه، فهي تروّعني فيه ترويعاً متصلاً ليس إلى انقطاعه من سبيل.

أكنت نائمة؟ أكنت مستيقظة؟ أكنت مريضة؟ أكنت صحيحة؟ أكنت عاقلة؟ أكنت ذاهلة؟ لا أدري؛ إنما أعلم أنني كنت شاعرة شعوراً غامضاً ولكنه قوي ملحٌ كأنني قد أقمت إلى ينبوع يتفجر أمامي من الأرض في مكان رحب، بعيد الآفاق لا يقوم فيه شيء، ولا تقع العين فيه إلا على هذا الينبوع وعلى ظل مقيم عنده لا يريم، وعلى ظلال أخرى